النداء بالصوت في القرآن الكريم
دراسة في الاسلوب

م. د نجاح حسين كطان جامعة وارث الانبياء (ع) / كلية العلوم الاسلامية

ملخص البحث

للنداء اكثر من معنى اهمها هو الدعاء برفع الصوت ويكون المنادى هو الشخص أو الجهة المطلوب إقباله بحرف مخصوص.

وقد بين علماء اللغة أن للنداء سبعة أحرف، منها ما هو مختص بنداء البعيد حساً أو حكماً ونعني بحكما المنادى المنزل منزلة البعيد، لرقود أو غفلة أو علو محل أو انخفاضه، ومن ذلك ما استخدم في نداء العبد خالقه، ونداء الخالق عبدَه.

وقد استعمل الله سبحانه وتعالى أسلوب المناداة في أمر الاستماع إلى بعض من آياته العظيمة حيث نزلت آيات القرآن الكريم لغاية عظيمة الشأن في أمر الاستماع إلى آيات الرحمن، لما فيها من قوة العبارة وبلاغة المعنى وحسن الأسلوب، وجاء هذا الاستماع متنوعاً في صياغته،

إن أصوات حروف القرآن الكريم هي نفسها حروف العربية لكن أسلوبه أفاد من الصوت ما فارق به أساليب الكلام العربي، وهذا يتضح في القيمة التعبيرية للصوت وقد يتكرر الصوت وفي تكراره تصوير للموقف وتجسيم وإيحاء مما يدل على أن نغمة الجرس تسهم في إبراز المعنى المراد، ولعل أهمية صوت القرآن يتمثل في الإفادة منه في التأثير في الناس حيث نزل القرآن مسموعاً لا مكتوباً.

وإذا ما عدنا إلى الصوت وتأثيراته، نجد ان القران الكريم حافل باسلوب المناداة لاجل الاسماع ومن ذلك امره لابراهيم علية السلام بمناداة الناس داعيا لهم لحج بيت الله العتيق وهذا واضح من قوله تعالى ((واذن بالناس للحج)).

الكلمات المفتاحية:

النداء بالصوت، مناداة الله لعباده، مناداة موسى، منجاة مريم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على الحريص على أتباعه، والشفيع لأوليائه، محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى آله الأطهار المصومين الابرار واصحابه المنتجبين الأخيار.

أما بعد:

فعندما خلق الله ـ عز وجل ـ الانسان وهبه نعماً عديدة لا بد منها لكي تستقيم حياته ويدير أموره ويتفاعل مع ما حوله، ويعد السمع من أجل تلك النعم، أن يتفاعل به مع ما حوله فيستقبل عن طريقه الأصوات والحروف التي تملأ جوانب نهاره وتحيط به من حوله، فالصوت من المسموع الذي يضرب اعصاب سمع الانسان فيدرك بعقله جهته التي صدر منها، ومقصوده الذي انطلق لاجله، فهذا صوت يثير مكامن الخوف، وذاك يدفع به نحو الخشوع والعبادة، وذاك يجره نحو الطرب واللهو، وذاك صوت يزعجك أو يعلمك أو يقربك إليه، وهكذا حياة الانسان كلها محاطة بالصوت لا ينقطع عنها الا عندما يأوي إلى ركن السبات ويلبس ثوب الليل الذي لا بد من الركون إليه لينعم بشطر الراحة وسبب دوام الحياة بعد أن يقطع عنه كل أسباب استقبال الصوت وبذلك يتجدد بدنه ومداركه ليفتح باب يوم جديد من أيام حياته بتلقي حوادثه وحروفه وأصواته.

لما أرى من افتقاره إلى بحث يلملم شتاته، ويجمع مسائله، وعندما يممت وجهي شطر القرآن الكريم وانعمت النظر في آياته وجدت (الصوت) قد احتل حيزاً في كثير من سوره، وهذا يدل على أهمية الموضوع، فقدمته على غيره، وكتبت فيه عدة بحوث منها هذا البحث الذي جعلته تحت عنوان النداء بالصوت في القرآن الكريم – دراسة في الاسلوب – وقد جعلته على اربعة مطالب الاول منها هو بعنوان النداء للحج والثاني اسميته مناداة الله لعباده والمطلب الثالث مناداة كليم الله موسى ـ

عليه السلام ـ أما المطلب الرابع فكان تحت عنوان مناجاة مريم ـ عليها السلام ـ

وارجو ان اكون قد وفقت في بيان مضامين الموضوع وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

المطلب الأول: النداء للحج

{وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}(١).

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ عين لإبراهيم ـ عليه السلام ـ مكان البيت، وخاطب نبيه محمد ـ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ بأنْ يذكر لهؤلاء الكفار الذين يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وقت أن عيّن سبحانه لأبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ مكان البيت، وأرياه أساسه، كيف ابتدأنا هذا البيت الذي يعبد قومك فيه غيري(٢)، فقال تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}(٣).

فوضع الله سبحانه البيت مع آدم ـ عليه السلام ـ حين أهبطه إلى الأرض(٤).

ثم يأتي قوله سبحانه: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}(٥)، فكيف يمكن أنْ يصل صوته ـ عليه السلام ـ إلى كل بقعة في الأرض؟ فالخطاب لإبراهيم ـ عليه السلام ـ، وزعم بعضهم إنه لنبينا ـ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أمر بذلك في حجة الوداع(٦)، ولكنه قول مردود، فالآيات تتحدث عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ في بناء البيت.

والمعنى: ناد في الناس داعياً لهم إلى الحج أن هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، فأمره الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالأذان بالحج فقام على مقامه، فنادى: يا أيها الناس إنَّ الله كتب عليكم الحج فحجوا بيته العتيق(٧). كلمة " أذن " مشتقة من " الأذان " أي " الإعلان "(٨)

وقد اختلف في صفة تأذين إبراهيم ـ عليه السلام ـ بذلك، فقال بعضهم: نادى بذلك كما صرّح بذلك ابن عباس بقوله: لما فرغ إبراهيم ـ عليه السلام ـ من بناء البيت، قيل له: أذن في الناس بالحج، قال: رب وما يبلغ صوتي! قال: أذن وعلي البلاغ، فنادى

إبراهيم ـ عليه السلام ـ: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، قال: فسمعه ما بين السماء والأرض، أفلا ترى الناس يجيئون من أقصى الأرض يلبون[٩].

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: ((لما بنى إبراهيم ـ عليه السلام ـ البيت أوحى الله تعالى إليه: أن أذن في الناس بالحج، قال: فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً، وأمركم أن تحجوه، فاستجاب له من سمعه من شيء من حجر وشجر وأكمه أو تراب أو شيء: لبيك اللهم لبيك))[١٠].

وعن سعيد بن جبير ـ رحمه الله ـ انه قال: ((فقرت التلبية في قلب كل ذكر وأنثى))[١١].

في حديث رواه علي بن إبراهيم في تفسيره: عندما تسلم إبراهيم (عليه السلام) هذا الأمر الرباني قال: إن أذاني لا يصل إلى أسماع الناس، فأجابه سبحانه وتعالى (عليك الأذان وعلي البلاغ) ! فصعد إبراهيم (عليه السلام) موضع المقام ووضع إصبعيه في اذنيه وقال: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم. وأبلغ الله عز وجل نداءه أسماع جميع الناس حتى الذين في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، فردوا: لبيك اللهم لبيك! وإن جميع الذين يشاركون في مراسم الحج منذ ذلك اليوم وحتى يوم القيامة، هم من الذين لبوا دعوة إبراهيم (عليه السلام)[١٢].

وعن أبي الطفيل قال: قال ابن عباس: ((هل تدري كيف كانت التلبية؟ قلت: وكيف كانت تلبية؟ قال: إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ لما أُمِرَ أن يؤذن في الناس بالحج خفضت له الجبال رؤوسها، ورفعت القرى، فأذن في الناس))[١٣].

وقال آخرون: قيل لإبراهيم ـ عليه السلام ـ أذن في الناس بالحج، قال: يا رب كيف أقول؟ قال قل: لبيك اللهم لبيك، فكانت أول تلبية، وكان ابن عباس ـ يقول: عني بالناس في هذا الموضع أهل القبلة، ألم تسمع أنه قال: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً}[١٤] إلى قوله: {وَمَنْ

دَخَلَهُ كَانَ آمِناً}[١٥]، يقول: ومن دخله من الناس الذين أمر أن يؤذن فيهم وكتب عليهم الحج فإنه أمن فعظموا حرمات الله تعالى فإنها من تقوى القلوب[١٦].

إذاً فالسؤال الذي سأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه ـ سبحانه وتعالى ـ، أجابه سبحانه بأن هذا الأمر من عمله تعالى، إذ تكفل بإيصال الصوت إلى كل أنحاء الأرض، وما عليه إلا أن يتوكل على الله سبحانه ويصعد الجبل ويؤذن[١٧].

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ تكفل بإيصال الصوت إلى أعلى مسافة وأبعد بقعة في الأرض، وكل ذلك حصل بمعجزة إلهية، لكن الله ـ عز وجل ـ أمره بالأخذ بالأسباب وهيأ له الأفئدة تهوي إلى ذلك المكان، وكل ذلك حصل بقدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ[١٨]، ولكن لأهل العلم تفسيراتهم وتعليلاتهم، فيمكن تأويله على نظرية استرداد الأصوات المندثرة عبر الزمن، والتي تقول بإمكان استرداد الموجات الصوتية وتذبذباتها عن طريق تقنية معينة، وبالتالي إمكانية استرجاع أصوات السابقين من البشر من أنبياء وصالحين ومشاهير.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ خاطب المؤمنين بكثير من الخطابات وناداهم في كل خطاب بأمر يلزم كل فرد أدائه باحسان، لأنه مكلف به، فالمناداة تخاطب الذين آمنوا، وبهذه الصفة التي تقتضي التلقي من الله سبحانه الذين آمنوا به في تشريع القصاص، وهو يناديهم لينبئهم أنه سبحانه فرض عليهم شريعة القصاص في القتلى وكذلك أمر الصيام وباقي الشرائع والأحكام بالتفصيل الذي جاء عنه، ليوقظ في المؤمنين التعقل والتدبر لهذه الحكمة، كما يستجيش في قلوبهم شعور التقوى وهو صمام الأمان في مجال القتل والقصاص[١٩].

فهكذا تبدو منة الله ـ سبحانه وتعالى ـ في هذا التكليف الذي يبدو شاقاً ومتعباً على الأبدان والنفوس البشرية، وتتجلى الغاية التربوية منه، والإعداد من ورائه للدور العظيم الأكبر الذي أخرجت هذه الأمة لتؤديه، أداء تحرسه التقوى ورقابة الله وحساسية الضمير[٢٠].

المطلب الثاني: مناداة الله لعباده

فقد فرض الله سبحانه الصيام على كل مكلف، وفي سياق الحديث عن الصيام وبيانه وتفصيلات أحكامه، تجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفايا السريرة، وتجد العوض الكامل العجيب المرغوب عن مشقة الصوم، والجزاء المعجل على الاستجابة لله ـ سبحانه وتعالى ـ، فتجد ذلك العوض وهذا الجزاء في القرب من الله سبحانه، وفي استجابته للدعاء تصوره ألفاظ بعبارة شفافة تكاد تنير وهو قوله سبحانه: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٢١].

فظاهر نظم الجملة {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي} أنهم سألوا عن الله سبحانه، والسؤال لا يكون عن الذات، وإنما يكون عن شأن من شؤونها، فقولـه تعالى في الجواب: {فَإِنِّي قَرِيبٌ} يدل على أنهم سألوا عن جهة القرب أو البعد، ولم يصدر الجواب بـ (قل) أو (فقل) كما وقع أجوبة مسائلهم الواردة في آيات أخرى نحو قوله سبحانه: {وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً}[٢٢]، بل تولى جوابهم بنفسه، إشعاراً بفرط قربه منهم، وحضوره مع كل سائل، بحيث لا تتوقف إجابته على وجود واسطة بينه وبين السائلين من ذوي الحاجات[٢٣].

وسبب نزول هذه الآية الكريمة روى أن أعرابياً قال: يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ) ـ فأنزل الله سبحانه الآية[٢٤].

وروى عبد الرزاق عن الحسن البصري أنه قال: ((سأل أصحاب رسول الله ـ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ أين ربنا؟ فأنزل الله ـ عز وجل ـ الآية)) [٢٥].

فإننا نجد في الآية الكريمة استجابة المناداة من الخالق ـ جل وعلا ـ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يحده زمان ولا مكان، ولكنه موجود في كل زمان وفي كل مكان، عليم مطلع على كل ما يصدر من عباده من أقوال وأفعال وأحوال، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، فهو

قريب منهم، بل أقرب إليهم من نفوسهم، كما قال تعالى: {وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[٢٦]، فقوله: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين الثابت، فيعيش المؤمن في جنات رضى، وقربى ندية، وملاذ أمين، وقرار مكين[٢٧].

وفي ظل هذا الأنس، وهذا القرب الودود، والاستجابة الوحيدة يوجه الله سبحانه عباده إلى الاستجابة له، والإيمان به، لعل هذا يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح فيقول: {فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[٢٨][٢٩].

المطلب الثالث: مناداة موسى ـ عليه السلام ـ

ولنا وقفة أخرى مع سورة طه، وهي من أوائل السور التي نزلت على رسول الله ـ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ، تأسية له في تحمل المشاق التي يلقاها من الكفار، الذين يعارضون دعوته، وترفقاً بنفسه، وقد نزلت قصة موسى ـ عليه السلام ـ لتكون له فيها أسوة حسنة، وليأتم به في احتمال أعباء الرسالة، والصبر على مشاق الدعوة إلى عبادة الله سبحانه، وقد قص الله سبحانه نبأ موسى ـ عليه السلام ـ حينما استأذن صهره شعيباً ـ عليه السلام ـ أن يخرج من أرض مدين، ويتوجه لزيارة والدته وأخته اللتين كان قد تركهما منذ عشر سنين في مصر، وخرج منها هرباً من فرعون وجنوده، بعد ان ظن أنَّ هذه المدة الطويلة ربما تكون قد أسدلت ذيل النسيان عليه وعلى فعلته، وهي قتله المصري انتصاراً لمن استنجد به من بني قومه، فمضى على غير الطريق المعهود، مخافة أنْ يتعرض له ملوك الشام بسوء، فلما وافى وادي طوى، وهو بالجانب الغربي من الطور، في ليلة مظلمة شاتية مثلجة، ولد له ولد في تلك الليلة، ولم يكن معه غير أهله، وهم زوجه وطفلاه وخادمة، فقدح زنده فلم يور، ولم يخرج منه شرر، وكان قد ظل الطريق، وتفرقت ماشيته، ولم

يجد ماءً، فأخذ يتلفت حواليه حيراناً، لعله يجد ناراً، فلاحت له على بعد في أحشاء الظلام المطبق نار من جانب الطور، وقد تحققها وأنسها وأبصرها ابصاراً يشوبه شك أو شبهة، فطلب إلى من معه أنْ يقيموا في مكانهم لا يبرحوه، حتى يذهب إلى تلك النار، راجياً أنْ يعود إليهم منها بشعلة يصطلونها ويستضيئون بها أو أن يجد من بعض الناس الذين يجلسون حولها للاصطلاء هادياً يأتي به، ليهديهم جادة الطريق، فقد ضلوه، ولم قرب من موضع النار التي أبصرها سمع نداء ربانياً من جميع الجهات[٣٠].

فإنَّ القلب ليجف، وإن الكيان ليرتجف، وهو يتصور ذلك المشهد ويتلقى هذا النداء الرباني، حتى الوجود كله من حوله تجاوب مع هذا النداء العلوي، فتلقاه تلقياً روحانياً تمثل لجميع بدنه، وانتقل إلى حسه من كل أعضاء جسمه، دون اختصاص بعضو أو جهة، فنودي: {إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً}[٣١]، فما يمكن تحديد مصدر النداء ولا اتجاهه، ولا تعين صورته ولا كيفيته، ولا كيف سمعه موسى ـ عليه السلام ـ أو تلقاه، نودي بطريقة ما فتلقى بطريقة ما، فذلك من أمر الله الذي نؤمن بوقوعه، ولا نسأل عن كيفيته، لأن كيفيته وراء مدارك البشر وتصورات الإنسان[٣٢]، فجاءه الصوت الإلهي: {إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[٣٣]، أي إني قد اصطفيتك للنبوة، واخترتك للرسالة، وذلك يوجب عليك أنْ تحسن الإصغاء، وأنْ تسكن جوارحك، وتغض بصرك، ويخشع قلبك[٣٤].

قولـه تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ}[٣٥] غاية في التكريم، فالله بذاته هو الذي يختار عبداً من عباده، ولكنها رعاية الرحمن لهذا الإنسان، بعد إعلانه بالتكريم والاستعداد والتهيؤ يخلع نعليه ويجيء التنبيه للتلقي بقوله تعالى: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى}[٣٦].

فقال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ

فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ}[٣٧]، فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك مؤدباً لهم فقال: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٣٨] وقال ههنا: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى. وقال وهب بن منبه: ((من أدب الاستماع سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو استماع كما يحب الله تعالى)) [٣٩]، وقال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: ((أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، ويجعل له في قلبه نوراً)) [٤٠].

والاستماع في قوله تعالى: {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} محمول على الإنصات إلى المعنى، فأنصت لوحيي، والوحي ههنا قولـه تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي}[٤١]، أي: وحدني وأقم الصلاة لذكري فيه[٤٢]، وما يوحى يلخص في ثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة، وهي أسس رسالة الله الواحدة[٤٣].

المطلب الرابع: مناجاة مريم ـ عليها السلام ـ

ثم تأتي سورة مريم لترسم لنا التصوير الفني والبلاغي في سرد القصص، إذ جعلت القصص هي مادة هذه السورة، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيى ـ عليهما السلام ـ

كانت أم المسيح مريم بنت عمران حملت بها أمها، فنذرت أن تجعل ما في بطنها إذا وضعته محررا يخدم المسجد، وهي تزعم أن ما في بطنها ذكور، فلما وضعتها وبان لها أنها أنثى حزنت وتحسرت ثم سمتها مريم أي الخادمة، وقد كان توفي أبوها عمران قبل ولادتها، فأتت بها المسجد تسلمها للكهنة وفيهم زكريا فتشاجروا في كفالتها، ثم اصطلحوا على القرعة وساهموا فخرج لزكريا فكفلها، حتى إذا أدركت ضرب لها من دونهم حجابا فكانت تعبد الله سبحانه

فيها لا يدخل عليها إلا زكريا، وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وقد كانت (عليها السلام) صديقة، وكانت معصومة بعصمة الله، طاهرة، مصطفاة، محدثة، حدثها الملائكة بأن الله اصطفاها وطهرها، وكانت من القانتين ومن آيات الله للعالمين(٤٤).

ولنأخذ من السورة المباركة قصة نبي الله زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، إذ بدأت القصة بمشهد الدعاء، دعاء زكريا ـ عليه السلام ـ لربه ـ جل وعلا ـ في ضراعة وخفية، فقال سبحانه: {قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً}(٤٥)، إنه ـ عليه السلام ـ يناجي ربه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم، في عزلة يخلص فيها لربه، ويكشف له عما يثقل كاهله، ويكرب صدره وينادي في قرب وإيصال {رَبِّ} بلا واسطة حتى ولا حرف النداء، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكن المكروب يستريح إلى البث، ويحتاج إلى الشكوى، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أنْ يدعوه وأن يبثوا ما تضيق به صدورهم، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}(٤٦)، ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عمدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر، وليستشعروا صلتهم بالجانب الذي لا يضام من يلجأ إليه، ولا يخيب من يتوكل عليه(٤٧).

وزكريا ـ عليه السلام ـ يشكو إلى ربه وهن العظم، وانه لشديد الطمع، وعظيم الرجاء في أن يقبل دعاءه، ثم يعقب ـ عليه السلام ـ عليه بقوله: {وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً}(٤٨)، معترفاً بأنَّ الله ـ جلت قدرته ـ قد عوده أنْ يستجيب إليه إذا دعاه، فلا يشقى مع دعائه لربه سبحانه وهو في فتورته وقوته، فما أعوزه وأحوجه الآن في هرمه وكبره أن يستجيب الله له، ويتم نعمته عليه(٤٩).

فمن هنا نستدل على أنَّ مناداة ومناجاة سيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ لا يوقفها اعتراضات خلقية أو طبيعية، ما دام العبد موقناً بربه خيراً، وما دامت الصلة بين العبد وربه موثوقة بالعبادة واليقين والإيمان به سبحانه وتعالى، وهذا ما حصل لسيدنا زكريا ـ عليه السلام ـ بدعائه ومناداته لربه ـ جلت قدرته ـ، على الرغم من كبر سنه وشيخوخته، وكانت مناداته لربه نداءً خفياً، أي: وقت أنْ دعا ـ عليه السلام ـ ربه ـ سبحانه وتعالى ـ دعاءً خفياً لا يسمعه أحد، وهذا هو المطلوب في استجابة الدعوة، خاصة إن كانت هذه الدعوة خارجة من قلب مؤمن مخلص لربه.

وما زلنا في سورة مريم، وتنقلنا إلى قصة السيدة العذراء مريم ـ عليها السلام ـ، فحملت بسيدنا المسيح ـ عليه السلام ـ، فتوارت عن الناس واعتزلت أهلها في مكان قصي وراء الجبل، هرباً من لائِمَتهم، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ على نبيه ـ (صلى الله عليه وآله وسلم) ـ نبأها، وذكّر الناس يا محمد وقت أن تنحت وانفردت عن الناس، في مكان شرقي بيت المقدس، تخلو فيه إلى بعض شأنها، وجعلت بينهم وبينها حجاباً يحجبها عنهم، وساتراً يفصلها منهم، وبينما هي في خلوتها وعزلتها، أرسلنا إليها جبريل ـ عليه السلام ـ، فظهر لها في صورة آدمي سوي الخلق، وضيء الوجه، لتستأنس به ولا تنفر منه[٥٠]، فقال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً}[٥١]، وبعد ما نفخ جبريل ـ عليه السلام ـ في جيب درع مريم، وأحست بألم الوضع، ثم ولدت عيسى ـ عليه السلام ـ ووضعته، جلست حزينة مكتئبة، فسرعان ما أدركها لطف الله وأحاطت بها عنايته، فسمعت صوت جبريل ـ عليه السلام ـ يناديها بالقرب منها من مكان تحت المكان الذي كانت به أسفل الأكمه، قال تعالى: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً}[٥٢]، فإنَّ من لطف الله ـ سبحانه وتعالى ـ ورحمته وفر لها من مستلزمات الوضع كل ما تحتاجه، فلما سمعت السيدة

مريم ـ عليها السلام ـ ذلك اطمأنت نفسها، وسلمت لله أمرها، وحملت طفلها بين يدها.

ثم يمضي السياق في سورة مريم مستطرداً قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ، قال تعالى: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً}[٥٣]، أي: اذكر يا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) للناس قصة موسى ـ عليه السلام ـ أن الله تعالى قد أخلصه للعبادة والنبوة، فكان رسول الله إلى خلقه، بلغهم شريعته وأمرهم بعبادته، وقد كشف الله تعالى له حجب الغيب، وأظهر له أسرار ملكوته، وناداه فسمع نداءه من جانب الطور الذي كان يقع على يمين موسى ـ عليه السلام ـ، وقد خصه بتشريفه، واصطفاه لرسالته، وأكرمه بمناجاته، وأسبغ عليه رحمته، وآزره بمعونة أخيه هارون ـ عليه السلام ـ النبي، ومعاضدته استجابة لدعائه بقوله: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي}[٥٤]، الذي كان عبارة عن " سؤال له آخر وهو رابع الأسئلة وآخرها، والوزير فعيل من الوزر بالكسر فالسكون بمعنى الحمل الثقيل سمي الوزير وزيرا لأنه يحمل ثقل حمل الملك، وقيل: من الوزر بفتحتين بمعنى الجبل الذي يلتجأ إليه سمي به لان الملك يلتجئ إليه في آرائه وأحكامه "[٥٥].

فيصف الله ـ سبحانه وتعالى ـ موسى ـ عليه السلام ـ بأنه كان مخلصاً استخلصه الله له وخصه لدعوته، وكان رسولاً نبياً، والرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس، والنبي لا يكلف إبلاغ الناس دعوة، وإنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله سبحانه، وكان في بني إسرائيل أنبياء كثيرون وظيفتهم القيام على دعوة موسى ـ عليه السلام ـ، والحكم بالتوراة التي جاء بها من عند الله سبحانه[٥٦]، ودليل ذلك قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ}[٥٧].

ويبين فضل موسى ـ عليه السلام ـ بندائه من جانب الطور الأيمن ـ الأيمن بالنسبة لموسى عليه السلام إذ ذاك ـ، وتقريبه إلى الله سبحانه لدرجة الكلام، والكلام قريب في صورة مناجأة، ونحن لا ندري كيف كان هذا الكلام؟ وكيف أدركه موسى ـ عليه السلام ـ؟ أكان صوتاً تسمعه الأذن، أم يتلقاه الكيان الإنساني كله، ولا نعلم كيف أعد الله سبحانه كيان موسى ـ عليه السلام ـ البشري لتلقي كلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ الأزلي، وإنما نؤمن أنه كان وهو على الله سبحانه هين أن يصل مخلوقه به طريقة من الطرق، وهو بشر على بشريته، وكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ علوي على علويته، ومن قبل كان الإنسان انساناً بنفخة من روح الله ـ سبحانه وتعالى ـ[٥٨].

ومما لاشك فيه إنّ النداء الحاصل التي اشارة اليه هذه الآية الشريفة انما هو نداء الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى وليس سواه، ولا ضير وقد أتفق المسلمون على تفاوت مشاربهم الكلامية على أنّ الخالق جل وعلا هو المتكلّم مع موسى (عليه السلام)، وقد ارتكزوا في ذلك إلى ما ورد في الكتاب الكريم وسُنّة المعصوم، إلاّ أنّهم قد تباينوا في بعض من القضايا التي تتعلّق بكلامه عزّ وجلّ، التي منها هل أن كلامه عز وجل حادث أو قديم، وهل هو من صفة للذات أو هو من صفات الفعل، وكذلك اختلفوا في ماهية كلامه تعالى، والذي عليه الإمامية أنّ كلامه سبحانه حادث، وهو من صفة للفعل، يحدثه الله عز وجل في شجرة أو غيرها.

فعلى أية حال إن المناداة هو علم أو تعلم على أساس النداء، وهذا النـداء هو كلام يصدر عن أصوات مفهومة ومعلومة تحاكي أمراً من الأمور، ونجد ذلك واضحاً فيما تقدم به الكلام، والله أعلم[٥٩].

الخاتمة

- نزلت آيات القرآن الكريم لغاية عظيمة الشأن في أمر الاستماع إلى آيات الرحمن فيها من قوة العبارة وبلاغة المعنى

وحسن الأسلوب، وجاء هذا الاستماع متنوعاً في صياغته، فالله سبحانه وتعالى استعمل أسلوب المناداة في أمر الاستماع إلى بعض من آياته العظيمة.

- القرآن الكريم في مبناه ليس ثقيلاً فهو ميسر للذكر ولكنه ثقيل في ميزان الحق، ثقيل في أثره في القلب

- ليس الغرض برفع الصوت، ولا الجهر الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة لأن ذلك كفر والمخاطبون المؤمنون وإنما الغرض هو الصوت في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء.

- خلال تدبر الآيات ترى أموراً عديدة منها النفسية ومنها الطبية ومنها العلمية باختصاصات عديدة أخرى فهي تعطينا مقياساً شاملاً عاما للحياة الدنيا وللآخرة، للأحياء وللأموات للإنسان وللحيوان وللجن، ومن ضمن هذا القياس القياس الدنيوي الذي تقع ضمنه النافذة السمعية للإنسان.

هوامش البحث

١. سورة الحج: الآية (٢٧).
٢. ينظر: روح المعاني: ١٧ / ١٤٣.
٣. سورة الحج: الآية (٢٦).
٤. ينظر: جامع البيان، الطبري: ١٧ / ١٤٣.
٥. سورة الحج: الآية (٢٧).
٦. ينظر: روح المعاني، الالوسي: ١٧ / ١٤٣.
٧. ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١٢ / ٣٨، والدر المنثور، السيوطي: ٦ / ٢٣ ـ ٢٤.
٨. التفسير الامثل، ناصر مكارم الشيرازي: ١٠/ ٣٢٢
٩. ينظر: الجامع لأحكام القران: ١٢ / ٣٨، وروح المعاني: ١٧ / ١٤٣.
١٠. جامع البيان: ١٧ / ١٤٤.
١١. المصدر نفسه.
١٢. ينظر: بتلخيص، عن تفسير علي بن إبراهيم حسبما نقله تفسير نور الثقلين: ٣/ ٤٨٨. والآلوسي في روح المعاني، والفخر الرازي، في التفسير الكبير في تفسير الآية موضع البحث مع بعض الفارق.
١٣. جامع البيان: ١٧ / ١٤٥.
١٤. سورة آل عمران: الآية (٩٦).
١٥. سورة آل عمران: الآية (٩٧).
١٦. ينظر: جامع البيان: ١٧ / ١٤٥، والجامع لأحكام القرآن: ١٢ / ٣٨.

١٧. ينظر: المنظار الهندسي للقرآن الكريم، خالد فائق صديق: ٦٣٨.
١٨. ينظر: تاريخ الأمم والملوك، الطبري: ٥ / ١٦٨، وتهذيب البداية والنهاية ابن كثير: ١٧٠.
١٩. ينظر: في ظلال القران، سيد قطب: ١ / ٢٣٢.
٢٠. ينظر: المصدر نفسه.
٢١. سورة البقرة: الآية (١٨٦).
٢٢. سورة طه: الآية (١٠٥).
٢٣. ينظر: صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني: ١ / ١١٠.
٢٤. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول، السيوطي: ٢٣.
٢٥. تفسير القرآن، عبد الرزاق الصنعاني: ١ / ٧٣.
٢٦. سورة ق، الآية (١٦).
٢٧. ينظر: في ظلال القرآن: ١ / ٢٤٨.
٢٨. سورة البقرة: الآية (١٨٦).
٢٩. ينظر: في ظلال القران: ١ / ٢٤٧.
٣٠. ينظر: تفسير القران العظيم، ابن كثير: ٢ / ٢١٨.
٣١. سورة طه: الآية (١٢).
٣٢. ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٤٦٦.
٣٣. سورة الأعراف: الآية (١٤٤).
٣٤. ينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٧٦.
٣٥. سورة طه: الآية (١٣).
٣٦. سورة طه: الآية (١٣).
٣٧. سورة الزمر: الآية (١٨).
٣٨. سورة الأعراف: الآية (٢٠٤).
٣٩. الجامع لأحكام القرآن: ١١ / ١٧٦.
٤٠. المصدر نفسه.
٤١. سورة طه: الآية (١٤).
٤٢. ينظر: جامع البيان: ١٦ / ١٤٧، وزاد المسير، ابن الجوزي: ٥ / ٢٧٥.
٤٣. ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٤٦٧.
٤٤. ميزان الحكمة، محمد الريشهري: ٤ / ٣١٦٤
٤٥. سورة مريم: الآية (٣ـ٤).
٤٦. سورة غافر: الآية (٦٠).
٤٧. ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٤٢٥.
٤٨. سورة مريم: الآية (٤).
٤٩. ينظر: في ظلال القرآن: ٥ / ٤٢٥.
٥٠. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢٢٤.
٥١. سورة مريم: الآية (١٦).
٥٢. سورة مريم: الآية (٢٤).
٥٣. سورة مريم: الآية (٥٢).
٥٤. سورة طه: الآية (٢٩).
٥٥. تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي: ١٤ / ١٤٦.
٥٦. ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢٢٤، وفي ظلال القران: ٥ / ٤٣٣.
٥٧. سورة المائدة: الآية (٤٤).
٥٨. ينظر: في ظلال القران: ٥ / ٤٤١.
٥٩. ينظر: المنظار الهندسي: ٦٣٧.

المصادر والمراجع

١. الامثل في تفسير كتاب الله المنزل، ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، ط١ ١٤٢٦ هـ.

٢. الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط١ ١٤١٧ هـ

٣. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الكتب العلمية-بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٤. الأصوات العربية بين التحول والثبات: للدكتور حسام سعيد النعيمي، دار الحكمة ـ العراق، ط ١، ١٩٨٩م.

٥. زاد المسير، ابن الجوزي، دار التأليف ـ مصر، ط ١، ١٩٦٣م.

٦. المنظار الهندسي للقرآن الكريم، خالد فائق صديق، مكتبة الانجلو المصرية ـ مصر

٧. أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: للدكتور نايف خرما، مطابع دار القبس ـ الكويت، سلسلة عالم المعرفة، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٨. الإعجاز البلاغي: للأستاذ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة-مصر، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

٩. إعجاز القرآن: للعلامة أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، المتوفى سنة (٤٠٣) هـ، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف ـ مصر، ط ٣، ١٩٧١م.

١٠. روح المعاني: ابو الثناء الآلوسي، مطبعة الاستقامة ـ مصر، ط ١، (د ـ ت).

١١. البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي، المتوفى سنة (٧٩٤) هـ، تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم، مطابع عيسى البابي الحلبي ـ مصر، ط ١، ١٩٥٨م.

١٢. بيان إعجاز القرآن: للشيخ أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، المتوفى سنة (٣٨٨) هـ، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول، مطبوع ضمن ثلاث رسائل، دار المعارف ـ مصر، (د ـ ت).

١٣. البيان والتبيين: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المتوفى سنة (٢٥٥) هـ، تحقيق:

الاستاذ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط ٥، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

١٤. تفسير القرآن: للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المتوفى سنة (٢١١) هـ، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد ـ الرياض، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٥. تفسير القرآن العظيم: للإمام أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير الدمشقي، المتوفى سنة (٧٧٤) هـ، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

١٦. تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم): للشيخ محمد رشيد رضا، دار المنار ـ مصر، ١٩٥٤م

١٧. جامع البيان عن تأويل آي القران: للطبري، دارالمعرفة ـ بيروت، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م

١٨. الجامع لأحكام القرآن: للشيخ أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المتوفى سنة (٦٧١) هـ، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط ٣، ١٩٦٧م.

١٩. الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية): لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، المتوفى سنة (٣٩٣) هـ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار المعارف للملايين ـ بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٢٠. صحيح البخاري: للحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري الجعفي، المتوفى سنة (٢٥٦) هـ، دار الفكر ـ بيروت، عن طبعة دار الطباعة العامرة ـ استانبول، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

٢١. صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، المتوفى سنة (٢٦١) هـ، تحقيق: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

٢٢. صفوة التفاسير: للشيخ محمد علي الصابوني، دار القلم ـ بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٢٣. ميزان الحكمة: محمد الريشهري، الناشر: دار الحديث – قم، تأريخ الاصدار: ٤٢٢هـ.